

## عن الغزالي ومراحله الاقطاع

(\*)  
د. سالم حميس

بهيمنة القاعدة الايديولوجية وطغيانها في العهود التي عرفت نمط الانتاج الفيدالي. هذا مع العلم أن تسر البنية السفلية كقاعدة حركة قائدة يظل، في حالة نمط الانتاج المذكور، يشبه اختفاء مخرج المسرحية وراء مثيلها. فهي إذن - حسب تعبير انجلز وماركس - المتحكمة في آخر المطاف أو على أعلى مستوى، وهي التي تصير إلى حالة من الاعتمال الداخلي وعدم الجلاء فظهور الايديولوجيا (وهي مجموع التصورات والقيم) يظهر المنشط والداعي اللامباشر على علاقات الانتاج الاقتصادية... .

أملنا مع هذا البحث أن نوفق في تشغيل تلك الفرضية حتى نتبين بعض وجوه العلاقة الحميمة بين وثيقة الغزالي وقطعته وبين تأسيس نظام الاقطاع في زمانه.

\* \* \*

كل النشاطات الفكرية المهيمنة في المحيط العربي الاسلامي للعهد الوسيط تضافت جهودها لختم

تقديم :

عند التعاطي لدراسة الايديولوجيات الكلاسيكية تكون حالة الباحث النفسية في زماننا هذا أقرب إلى الارتياب في متانة الأرضية التي يقف عليها وإلى التردد في التفاني والمثابرة في فهم وعرض موضوعاته جلة وفصيلاً. ولعل السبب في ذلك هيمنة العقلية الاقتصادية في تفسير مجتمعاتنا الرأسمالية والشبكة الرأسمالية الحالية، وبالتالي تراجع العامل الايديولوجي واحتفاء الدور الخامس الذي كان يؤديه داخل الانظمة الاقطاعية في العصور الوسطى... فالواجب المعرفى إذن هو أن نضع بين قوسين الظواهر التي صاحبت الثورة الصناعية البورجوازية كنظام الأجور واغتصاب قوى الانتاج من وسائلها والفائض في عملها وفي القيمة التي تتجهها، وذلك سعياً منا إلى تجنب التفسير المادي الآلي ومتشارياً مع روح المادية الجدلية التي تعرف - كما هو الحال في الكتابات الكارل ماركسية -

(\*) جامعة محمد الخامس - قسم الفلسفة - الرباط.

السلبية لضعف الجيش كما يراها الامام أن تصرير الامور شوري ويبقى الناس فوضي<sup>(1)</sup>.

ما هو خليق بالتسجيل ان عساكر قرون الانتكasaة، باسم الدفاع عن مبادئ الدين، قد تقوت وفرضت وضعها وامتيازاتها كطبقة دينية مسلحة متميزة. أما التراث الديني التاريخي فقد تفسخ بين أيديها وتحول الى تعلیمات بسيطة وشعارات جامدة وأوامر وتحريمات، فلم تعد عاجزة عن مساعدة تجديفات ثقافية محتملة فحسب بل صارت تتدخل فعلياً لمقاطعة كل مبادرة في البحث وختن كل اتفاقية فكرية. وهكذا استطاع الضباط، بفضل تزويع السلطة بالقوة ومستغلين هيمنتهم على الحكم المركزي، ان يختلطوا بيسر طرق الاملاك العقاري وجمع الثروات الهاشة.

إن ظهور هذا الصنف من العسكري في العالم الاسلامي كان معلناً، تحت حكم الوريثين وفي عهد السلاجقة خصوصاً وبصفة أشمل، عن تحول النظام الاقتصادي التقليدي القائم على مداخيل بيت المال (التي كان ريعها ينفق بنسبة ما في أداء أجور الجنود وبباقي مستخدمي الدولة) إلى نظام اقطاعي عقاري تقطعت بمقتضاه اراضٍ وضياعات لتنبع، مدى الحياة، إلى الضباط الذين يقومون في مقابل ذلك بجعل رجالهم في خدمة الحكم المركزي. وقد كان سبب ذلك التحول راجعاً أساساً إلى تدهور مداخيل الضرائب وسوء الحالة السياسية والمالية. وهذا التحول الكبير هو الذي أرخ له عاد الدين الاصفهاني قائلاً: «وكانت العادة جارية بجباية الاموال من البلاد وصرفها إلى الاجناد، ولم يكن لأحد من قبل اقطع، فرأى نظام الملك أن الاموال لا تحصل من البلاد لاحتلاها ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها ففرقها على الاجناد إقطاعاً وجعلها لهم حاصلاً وارتفاعاً فتوافت دواعيهم على عمارتها وعادت في أقصر مدة إلى أحسن حالة من حيلتها»<sup>(2)</sup>. وهذا بالضبط ما نقرأه عند

العرفان الديني الايديولوجي وحالته على نظام الاكتفاء الذاتي. أما إضفاء الطابع القطعي عليه فقد بلغ أشدّه وقمه حين صارت السيطرة السياسية إلى غير العرب الداخلين في الإسلام، من فرس وأتراك، والاتراك على الأخص اعتمدوا - لأسباب استراتيجية دينية - على الأشكال الوثائقية الإمامية في الإسلام ورفعوها متحمسين إلى أسمى آياتها. وهذه، الأشكال كانت سلفاً ممثلاً في مختلف فرق الفقهاء والدعاة والتكلمين الرسميين الذين يعود عليهم وزير السلagleة الكبير نظام الملك في كتابه سياسة نامه لأجل مكافحة الخطر الاسماعيلي... ولا حاجة هنا لأن نؤكد أن ميل العلماء السنين إلى الالتفاف حول كل حكم قائم ومركزى كان يكبر من سلطة إلى أخرى تعقبها. حتى الغزالى الذي سجل أن فساد الامراء والشعب ليس سوى عاقبة لفساد العلماء، لم يفلت من قبضة الحكم الخليفي والسلطاني ومن مناوراته.

ولكي تسنى ملاحظة ظاهرة قوله العرفان الاسلامي الوثائقية عن كثب، قد يكفي أن ننظر في مرفق تصبح فيه بينة واضحة، وهذا هو سياسة التنظيم العسكري طيلة عهود الانتكasaة، وبخصوص هذه المسألة التي تستحق بمفردها تحليلًا مونوغرافيًا مفصلاً، يمكن القول بأن التحام المركب الديني بالرؤية المجتمعية السياسية في الإسلام قد ساهم إلى حد بعيد في ظهور العسكر كقوة سياسية رئيسية وظاهرة.

ويعرف الغزالى بهذا الواقع اعترافاً لا غبار عليه، فهو يقول في حق الجيش. «لا يسمى متدين في أن الذب عن حوزة الدين والنضال دون بيضته والانتداب لنصرته وحراسته بالمحافظة على نظام أمور جند الاسلام وعدته - أمر، ضروري واجب لا بد منه، وأن النظام لا يستمر على الدوام الا بمرصد بكلأ الخلق بالعين الساحرة». ومن المضاعفات

ال المسلمين ، وهو الغزالى (1111-1059) قد زاول التعليم لحقبة ما في تلك المدرسة وكانت مؤلفاته رداً على الفلسفة والبدعة في آن واحد<sup>(4)</sup> كيف تأق للغزالى ان يلعب هذا الدور ويؤسسه نظرياً ودينياً؟

\*\*\*

الاجتهداد، يقول الغزالى: « هو عبارة عن بذل المجهود واستفراغ الوسع في فعل من الافعال، ولا يستعمل الا فيما فيه كلفة وجهد، فيقال اجتهد في حمل حجر الرحى ولا يقال اجتهد في حل خردة ». والتعریف، إلى الآن، متداول ومشهور. ولكن الغزالى يضییف: « صار اللطف في عرف العلماء مخصوصاً ببذل المجتهد وسعه في طلب العلم بأحكام الشرعية . والاجتهداد التام ان يبذل الوسع في الطلب بحيث يحس من نفسه بالعجز عن مزيد طلب<sup>(5)</sup> ». الجديد في الطرف الثاني من التعریف يتلخص في كلمة الطلاب التي يحسن أن تشرح بعبارة كهذه: التقى عن النصوص والمطالبة بها. أما النص في اعتقاد الغزالى فهو كلمة مشابهة: « انه اسم مشترك يطلق في تعارف العلماء على ثلاثة أوجه: (الأول) ما اطلقه الشافعى رحمه الله، فإنه سمي الظاهر ناصاً وهو منطبق على اللغة ولا مانع منه في الشرع . والنصل في اللغة بمعنى الظهور. تقول العرب: نصت الظنية رأسها اذا رفعته واظهرته. وسمى الكرسي منصة اذ تظهر عليه العروس، وفي الحديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا وجد فرحة نص ». فعل هذا الظاهر هو اللفظ الذي يغلب على الظن ( . . . ) (الثاني) وهو الاشهر: ما لا يتطرق اليه احتمال اصلاً ولا على قرب، ولا على بعد، كالخمسة مثلاً فانه نص في معناه لا يتحمل السesta ولا الاربعة وسائر الاعداد، ولفظ الفرس لا يتحمل الحمار والبعير وغيره، فكل ما كانت دلالته على معناه في هذه الدرجة سمي بالاضافة الى معناه ناصاً في طرفي الاثبات والنفي ، اعني إثبات المسمى ونفي ما لا

ماركس فيبر الذي كان أوسع علمًا وأفقاً من روبيروتووش صاحب كتاب نظام الأسياد والفيودالية « يمكن لاداء أجور الجيش القومي ولاحتكار هذا الأخير الذي حل فيما بعد أن يؤديا بعض الضباط وبالجيش نفسه الى تملك الموارد المالية من بلدان وأشخاص<sup>(3)</sup> . وهذا الصنف من الاقطاعية الجبائية الذي عرفه العالم الاسلامي والهنود المغولية لم يعد اذن يلزم المقطعين باستئجار الأرضي ودفع ضريبة العشر للدولة ، كما هو الحال في إقطاع التمليك ، بل حول الى قانون حق الجند في اغتصاب المخصصات الزراعية او إخضاع المزارعين للضرائب المباشرة . ولهذا سمي المشرعون هذا الاقطاع الجديد الذي ظهر في القرن الرابع الهجري اقطاع - استغلال . وبهذا التعريف فإنه يشكل صورة من صور الاقطاعية العالمية وينضاف الى تاريخ استغلال الإنسان للإنسان .

\*\*\*

لكي يتسمى تحليل بعض الآليات الذهنية في الايديولوجيا القطعية التي واكبت ظهور الاقطاعية وطاواعتها ابان العهد السلاجوقى ، لنا ان ننظر في نصوص اكبر تمثل لهذا العهد والمعبر عن تحولاته وتناقصاته: الغزالى ، الامام - المحجة .

يكتب بيرنار لويس ملخصاً انتءاء الغزالى السياسي: « إن إعادة التنظيم الاقتصادي في المعهد السلاجوفي الأول كان له ما يوازيه في الحياة الدينية . ففي بغداد وخارجها أصبحت المدارس مقامة غاذج لكل المعاهد التي ستؤسس في العالم الاسلامي . إن نظامية بغداد (هكذا سميت نسبة الى مؤسساها الوزير الكبير) وملحقاتها كانت مركز الانقليادية الارثوذوكسية المتمثلة في مذهب الاشعرية على الاختصار ، الذي أصبح الآن رسمياً . وكانت مهمة هذه المؤسسات مكافحة بدعة الاسماعيليين والراديكالية الفكرية للحقبة السابقة . إن أحد كبار المفكرين الدينيين

- 1- إنه يعبر فعلاً لهذا الوعي عن صورة قوته وقاسمه.
- 2- ان العنف الرمزي المتمثل في سلطة النصوص وتواترها يقوم مقام سلاح فعال لمواجهة من الوجود والتقلبات الاجتماعية.
- 3- ان اراده توحيد المجتمع ورص بنائه كانت من القوة بحيث لم تعد تقنع بالنصوص الوضعية الأولى، فأصبح حرس العقيدة والذاكرة الجمعية يطلقون العنان لاختلاف أحاديث غير صحيحة، قوبلت بالسكتوت ثم حللت بحججة ورع وتقوى أصحابه، وتحفظ بها مشتة تحت اسم: أحاديث موضوعة مرسلة أو قدسية<sup>(8)</sup>.
- ندرك إذن أن هذا الوعي بالبعد المجتمعي على النمط النصي الكتابي حيث يقصى الرأي والإحسان<sup>(9)</sup> هو التعبير المجرد عن سقوط الاجتهد الفردي وبالتالي سقوط الفرد نفسه (الواحد، الأوحد) الذي أصبح بفردياته خصوصيته عبارة عن كائن مزيف لا عمق له ولا قوام.
- هكذا حاول دوماً وأضعوا النصوص القيام بمهاتلات مذهله وذلك بإمدادها؛ وان في اتجاه معاكس أو على الأقل مغاير بنفس الاسلحة ونفس القوة الاقعية التي يتمتع بها الحدث التاريخي. وهكذا انصرف همهم الى:
- تكيف الوجود للمكتوب - صحيحأ كان أو معرفاً.
  - تقريب الأفراد وخلق المطابقة الأخلاقية بينهم.
  - إظهار ذاتية المؤمن وجعله مؤمناً طوال ساعات اليوم<sup>(10)</sup>.

وفي هذه الحالة، لا بد لطلب النصوص من أن يتسم بقيمة تعليمية وتربيوية: إدماج الفرد في المجموعة ورسم الطريق أمامه إلى الأمكنة العمومية حيث يستطيع أن يقوم بوظيفة المستفي أو المفتى (كعلم أو قاضٍ) أو الشارع أو المحدث، أو ان يصعد إلى

ينطبق عليه الاسم. فعل هذا حده اللفظ الذي يفهم منه، على القاطع، معنى؛ فهو بالإضافة إلى معناه المقطوع به نص؛ وبمحض أن يكون اللفظ الواحد نصاً ظاهراً مجملأً لكن بالإضافة إلى ثلاثة معانٍ لا إلى معنى واحد<sup>(6)</sup>.

وقوفاً عند التعريف الثاني الراجح والأشهر، المحدد لطبيعة النص القطعية، يمكن بادئ ذي بدء استخلاص ان المذهب الحنفي لم يعد الآن يمثل في تاريخ الانباء الايديولوجي والاجتهد الا مرحلة وهبة غابرية، إذ إن مفاهيمه «الشخصانية» (رأي، استحسان) وزنته النقدية الصارمة بإزاء وضع الأحاديث تؤدي حتى إلى نوع من اللامبالاة حيال النصوص ومركيزتها. وهكذا فهذه المفاهيم التي ينعتها الغزالي بأنها «أصول موهومة»<sup>(7)</sup> لا تستند إلا إلى «أخبار أحد» يستحيل وضعها إلى جانب النص القرآني والسنة والاجماع.

كيف لنا أن نفهم هذا العداء الذي ظهر في المالكية والشافعية وكبار في المدارس الظاهرية بإزاء الذوات الناطقة «الشادة» والاخبار المنعزلة التي تخلق في دوائر التورات حالة الشرود والانفصام؟

لا يمكن فهم هذا الموقف إلا كعلامة (ايديولوجية) عن انتكasaة دور الذاتية الفاعلة في حركة المعرفة الدينية وعن نزوع إلى محو (الأفراد الأحاد) كأفراد، باخضاع سلوكياتهم الأخلاقية والمعرفية إلى قوانين المائة والتوزن.

إذا كنا في عصر الغزالي قد وصلنا إلى مشاهدة ما يشبه تقدير النصوص، فلأن الانتشار الهائل للأحاديث وجمعها في الكتب «الصحيحة» ما كان ليترك قسطها لتبهان الذاتية والاحكام الفردية. وهذا التقديس - ظاهرة اجتماعية واقعية - يمكن للدارس أن يثبت أنه يعكس حقيقة خطيرة تاريجية في الوعي القومي الإسلامي :

من الصدفة في شيء ان تحدث معانقة الغزالى للتصوف شهوراً فقط بعد مقتل نظام الملك فى 485 هـ/1092 م. على يد أحد أعضاء الأسماعيليين الحشاشين. وهم الذين «كان الواحد منهم كما يكتب الاصفهانى، يهجم على كثير وهو يعلم انه يقتل فيقتل غيلة. ولم يجد أحداً من الملوك في حفظ نفسه منهم حيلة»<sup>(13)</sup>.

تبعاً لروح هذه التسجيلات وإجابة على سؤالنا، نقول إن استمرار الغزالى العملى في إمداد باب الاجتهد بأسباب الانسداد الإضافية لا يفسر إلا استمرار المخاطر المثلثة في الفرق التاريخية من صوفية وأسماعيلية وفلاسفة<sup>(14)</sup>. فكنا نرى الامام يحارب على جبهات عدة. معززاً باذواجية مواقفه؛ فيهاجم الصوفية كفقهه ويحكم على الفقه بنظر الصوفى<sup>(15)</sup>. غير أن عداوته الثابتة - والشىء المرضى - كان يخص بها الفلسفه والأسماعيليين، فيخصوصه طلاؤه كتابه «المستظهرى» أو فضائح الباطنية ولأولئك تهافت الفلسفه تتقدهم مقاصد الفلسفه. وحتى في كتاب في علم الاصول المستصنف تظهر نفس الغريزة العدائية ضد الفارابي، وخصوصاً ضد ابن سينا وضد الأسماعيلية من تعليمية ورافضة. وكل هذا يشير - إن كان الأمر لا يزال يحتاج الى برهنة - إلى ان انتهاء العمل بالاجتهد (أو قل بالفکر الشخصي الحر نسبياً لا يمكن تسجيله الا ضمن علاقات الصراع بين الفرق والفتنه الاسلامية لأجل تسخير ومراقبة التراث المعرفي ذي القوام الدينى)، ومن ثمة لامتلاك الحكم الزمانى. أما الغزالى، فقد كانت هناك شروط نفسية خاصة وظروف من السيطرة السنوية دفعته الى التحالف مع السنين ومارسة الكتابة السجالية وبطلب من الخليفة العباسي.

وأخيراً هل نجح الغزالى في فتح أعين المعاصرين على الاجتهد في الظنيات وحصر مداركهم ومطاعهم في حدود هذا الاجتهد الهامشى الفقير؟

مقام المجتهد في المذهب، وهذه حالة نادرة جداً. هكذا تظهر أشكال العلاقات الاجتماعية قائمة على عوامل التصنيف المجتمعى التالية: الاستفباء، الفتوى، الشرح، النصيحة. أما مرجع هذه العوامل فهو كما سبق ان ذكرنا، إما التسامح أو التواتر... وبكلمات جامعة، لنا أن نقول بان النصوص، وقد اكتسبت خاصيات العلاقات المقيدة، أصبحت أكثر فأكثر نظاماً للدمج المجتمعى غرضه تغليف الفرد في ثوب التوترات الشاسع وبالتالي حمايته من المخاوف واللحجارات التي قد يثيرها له العالم الخارجى.

لن ندعى اتنا اعطينا لمفهوم طلب النصوص عند الغزالى تأويلاً شخصياً، فالقراءة اليقظة لكتاب المستصنف من علم الأصول لن تؤدي إلى تأويل مغاير: ان الاجتهد في الظنيات ليس سوى اجتهد هامشى يذكرى انسداد الاجتهد ويدعمه.

أصبح إذن الإشكال كالتالى: اذا كان أمر ختم الاجتهد أمراً واقعاً، فلماذا الاستمرار في التأكيد عليه وجلب الدعائم الإضافية له؟

إن أسباب ذلك تظهر مرة أخرى أن انتقاء العمل بالاجتهد لا ترجع فقط الى العوامل التقنية للتطور الداخلى للفقه، بل تكمن كذلك في التاريخ الفكري والسياسي للعصر. «لفهم الغزالى، يسجل عبدالجليل، يلزم الا نسى الظروف السياسية التي وافقت، بشكل مزمع، المتعجرفات الحاسمة في حياته والتي كانت مؤثرة في فكره وعمله كما يشهد بذلك المؤرخون وتشهد مؤلفاته نفسها»<sup>(16)</sup>. ولا ريب ان هذه الملاحظة كانت ذات فضل على البحوث الجديدة حول الغزالى<sup>(17)</sup>. وقد تكون ميلانى الى تمجذيرها مؤكدين ان عصر الغزالى، وقد كان عصر أزمة سياسية واقتصادية كبيرة، ما كان لمفكربن ان يحتفظ فيه بحياة باطنة مستقلة. فتحى في الانعزالت والازمات الأكثر خصوصية كانت تلاحق الغزالى قضائيا زمانه واهتماماته. وكمثال واحد على ذلك ليس

في مقابل هذا كله نقرأ عند الغزالى من حين لآخر أفكاراً مدهشة تدعى إلى الاعتناء بالواقعة ودراستها. فهو مثلاً يقول صراحة بعجز النصوص من قرآن وسنة عن استيعاب الواقع. «فما من واقعة، كما يحسن القول، الا وفيها تكليف. والواقع لا حصر لها، بل هي في الامكان غير متناهية، والنصوص لا تفرض الا مخصوصة متناهية، ولا يحيط قط ما يتأتى بها لا يتأتى»<sup>(17)</sup>. كما ان الغزالى، في موضع آخر يؤكّد ان من بين شروط المناظرة الأساسية: «ان لا يناظر إلا في مسألة واقعة او قربة الواقع غالباً»<sup>(18)</sup>.

لكن بالرغم من جدة هذه الافكار ونصاعتها فانها لا تقلل في شيء من شأن توجّه الغزالى المثالى ولا تعيق سيره وحمله.

### ب - منهج اليين بين:

أزمة الشك عند الغزالى حالة موضوعية لأنها مستبطة وانعكاس لوضع تاريخي قائم<sup>(19)</sup>. أما حل هذه الأزمة فهو منسوب إلى الغزالى وإلى قدرته الذاتية في التحكم والصياغة، انه حل يفترض عقيدة وظيفتها اضعاف توترات الوجود وإعادة إقامة النظام، غير أن اقتصاد اليين بين الأخلاقي، المعول عليه في الإجابة عن حالة الشك أو التعطش إلى اليقين، يستر الطبيعة المتغيرة للقضايا القصوى التي يطرحها ذلك الشك، هذا الاقتصاد ليس له مكان وليس له سوى طاقة نضالية ضعيفة في أرضية لا تخيم فوقها القوى الأيدلولوجية المتصارعة ولا تصير هجومية إلا إذا كانت بالضبط تبني استراتيجيات التطرف وتتجنب الحلول الوسطى وعقلية الاتباع. فالظاهرية المتوسطة أو «الباطنية السنية» ما كان لها أن تهيمن على زمن لا تكون فيه الحلول الوسطى الا مؤقتة أو لحظات زائلة في حلقات صراع القوى الأيديو - سياسية التي تسعى كل واحدة منها إلى اسقاط الأخرى. إن وسطية

من الواضح أن الإجابة عن هذا السؤال تستلزم الاستعانة بالصيغة العامة للأيديولوجيا الغزالية. وجوابنا الذي هو بالمعنى سيكون محاولة لإثبات اسباب خيبة أبي حامد (أو بالأحرى فشهه) على مستوى منهجه، ثم من جهة مضمون خطابه وطبيعة مخاطبيه وتكونهم. ولربما خرجنا، في آخر الأمر، بصورة جلية قد تفيد ايديولوجياً واجتماعياً عن رجلنا الذي يتكلم.

### التابعون المؤسسون لمنهج الغزالى

#### أ - منهج مثالي:

ما كان لرجل كالغزالى أن يكون مؤرخ الواقع. فالفكرة التي كان يملكتها أو بالأحرى تملكه، كان يريدها احتجاجاً ضد الواقعة. وشعوراً منه بأن العالم المعاصر له، كما يسير، مرفوض، وأنه «قد عم الداء، ومرض الاطباء، وأشرف الخلق على الملأ»<sup>(16)</sup>، فإنه لا يكفل نفسه جهداً للاحاطة بالحوادث وتميزها وترتيبها من أجل فهمها والتعرف على آياتها، بل بالعكس، كان يعطي الأفضلية للتحليلات الذهنية الخالصة، مازجاً أسلوب التلميحات والتعيمات بحماس، والمشاكسة. فمعنى تعلق الأمر بالباطنية بلا تمييز على فرق لم ثبت بعد اسباب قرابتها، كالمي تعلم بالنص والشريعة والتي تنفيها. والى جانب فاطمي القاهرة وجدى القرامطة والخرامية والاسعاعية والسبعينية والمحرمة. أما حين تعلق الأمر بحدث ضخم، كهجومة الصليبيين على المسرح الإسلامي واحتلالهم لسوريا وفلسطين، فإن الغزالى قد صمت ولم ينطق بكلمة، فإما لأنه قدر أن تهديد الإفرنج الآتي من الخارج أهون من خطر الباطنية ولن يلبث أن يمر ويزول، وإما لأنه، مذعور أمام الحدث، قد أصابه الخرس ثم اللامبالاة..

العقلنة التقليدية القبلية لواقع تاريخي حاضر متحرك. وحين عجز الغزالى عن الانتصار في إدارة دليل الحقيقة بعزل عن تعاليم النبوة فإنه عاد يطلب عنون القوة وأحكام «سلطان متدين قاهر»<sup>(21)</sup>، ويقول بوجوب تفضيل الحكم القاهر على حالة الفتنة.

### ماذا قال الغزالى ولمن؟

ضمن جهود الغزالى واجهاته يحتل إحياء علوم الدين مكان الصدارة. غير أن الحكم الخالفى ، الذى من شأنه ان يتبنى مشروع الاحياء ، يختضر ويتهوى .. أما قوات السلاطين السلاجقة فيعززها لنصرة ذلك الإحياء التكويرى الدينى الصحيح والعقيدة الراسخة الحقة . وشعوراً بهذين الصنفين من العجز المركزي ، لم يبق للغزالى كملجاً آخر إلا المؤمن الفرد الذى يطلب منه الامام أن يدخل فى حرب الجهاد الأكبر، جهاد النفس ، حتى تستسلم للإيمان القوى وتعايشه . التسليم والتصديق ، التقليد والمجاهدة: هذه هي الكلمات - الشعارات التي يضعها الغزالى عنواناً لسلوكيات كل مؤمن .

إلى هذا الإنسان المتوسط أو الفقير الذى ما عادت تربطه بالمراجع الأصلية إلا اضعف الوشائج وأعمها ، وأضحى في قضية الحدث والمؤسسات ، ينخره الفقر ويستنزفه الخراج والإباء وتنهده المصادرات ، إلى هذا الإنسان المنهاز التعب يتوجه الغزالى طالباً منه أن يجاهد في إصلاح نفسه ويعيد إحياء جوارحه لإعداد قيام المدينة الفاضلة وإحضار السلف ... وهناك يمكن التناقض الأقصى في إصلاحية الغزالى وفي كل النزعات الاصلاحية اللاحقة . فبين التيارات المصلحة والجمهور المحروم من إرث الأنوار وتمجيدات الحق هوة تاريخية أو سوء تفاهم دائم ... الذين أبعدت أجسادهم ، في هذا العالم المنحل وخلال هذا الزمن العصيب ، عن

الغزالى السياسية ، كأى وسطية في حقل العمل السياسي تساوى الدرجة الصفر في الحياة السياسية الواقعية ، وخصوصاً عندما تكون هذه الحياة ، كالي عرفها عصر الغزالى ، قائمة على أزمات التفسخ والتفعن .

كان الغزالى ، حين عودته إلى الحياة العامة وإلى التعليم ، قد حكم على نفسه ، وبطريقة غير مباشرة ، بالخيئة لما استهدف فرض الحقوق الوثيقية المترفة لمبدأ المعجزة والنبوة الشمولي والضروري «منظفياً» ، وذلك على محيط فكري تكاثر فيه أسباب التعدد وشروط الجدل وتجذر في طبيعته مبادئ العلم الوضعي القائم على المشاهدة والاختبار والعلمية . وفي المقدمة من الضلال فصل كامل مخصص لحقيقة النبوة وحاجة العباد قاطبة إليها . وفي ذلك معارضه لنخبة مفكرة (من فلاسفة وصوفية وأهل التعليم ورجال العلم) تسعى إلى حصرها في نطاق تقول بمعقوليته ، وهو نطاق الحكمة والمصلحة العامة . ولقاريء كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي إن يقول - كما يكتب الغزالى - : «لست أفعل هذا تقليداً ، ولكنني قرأت علم الفلسفة وأدركت حقيقة النبوة وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وإن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقيدهم عن التقائل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فيما أنا من العوام الجهال حتى ادخل في حجر التكليف ، وأغا أنا من الحكماء اتبع الحكمة وأنا بصير بها ، مستغن فيها عن التقليد»<sup>(22)</sup>. والمستخلص إذن أن النسائى والتعبدات رياضات وعادات تقويمية تنفع عوام الخلق ولكنها تفقد لزوميتها وضرورتها عند العقول المثقفة . وأناس كهؤلاء يقولون بوجوب التخلص من التقليد والمناهج الفكرية الوثيقية ، هل كانوا لينصتوا إلى الغزالى ويتبعوا طريقه وهو الذي ينزع إلى اصلاح حالم بإعادة تربيتهم في الاطارات الأخلاقية والدينية التقليدية؟ بالطبع لا . باختصار إن خيبة الأحياء هي في آخر الأمر خيبة

الأمر بالمعروف ندم عليه غالباً. فإنه كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه، فإذا سقط عليه يقول يا ليتني تركته مائلاً. نعم لو وجد أعواناً أمسكوا الحاطن حتى يحكمه بدعامة لاستقام. وانت اليوم لا تجد الأعوان فدعهم وانج بنفسك<sup>(23)</sup>. وفي تعداد فوائد العزلة (وهي الأميل إلى التفضيل بالقياس إلى ادراك ووصف الغزالي لسوء أحوال زمانه) نقرأ استشهادات كهذه: «وفر من الناس فرارك من الأسد لأنك لا تشاهد منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا وغفلتك عن الآخرة ويهون عليك المعصية ويضعف رغبتك في الطاعة<sup>(24)</sup>». وكان بعضهم قد لزم الدفاتر والمقابر فقيل له ذلك فقال: لم أر أسلم من وحده ولا أوعظ من قبر، ولا جليس أمنع من دفتر<sup>(25)</sup>، وبعد انقضاء عشر سنوات من العزلة، ألف الغزالي خلاها الأحياء... أتى المنفذ من الضلال كتاباً مالت فيه مقالات الغزالي إلى الحماسة والاهتمامات بالغير. وبالفعل فقد قرر الغزالي العودة إلى الحماسة والاهتمامات بالغير. وبالفعل فقد قرر الغزالي العودة إلى الحياة العامة تدفعه - حسب اعترافه - دعوة تلقاها من فخر الملك (ابن نظام الملك) كي يستأنف تعليمه في نيسابور. فلما رأيت «أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب، ورأيت نفسي ملية بكشف هذه الشبهة، حتى كان افصاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء لكثرة خوضي في علومهم (وطرقهم) - أعني (طرق) الفلاسفة والصوفية والتعليمية والمتوسمين من العلماء -، انفتح في نفسي أن ذلك متبعين في هذا الوقت، محظوظ. فهذا تعنيك الخلوة والعزلة، وقد عم الداء ومرض الأطباء، واشرف الخلق على الاهلاك؟ ثم قلت في نفسي: «متى تشغل انت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة؛ والزمان زمن الفترة، والدور دور الباطل، ولو استغلت بدعوة الخلق، عن طرقهم إلى الحق، لعادك أهل الزمان ياجمعهم، وأنت تقاومهم

نفحات الاله و«شرحه»، فعانت من العياء اليومي ببحثاً عن القوت وعاشت العسر وضيق الحال، هؤلاء هم الذين يخاطبهم الاصلاحيون بـ«احاديث تنهى كل كلماتها عن العصيان والفتنة وتذكر انه لا أحد يقدر على اصلاح غيره ان لم يبدأ باصلاح نفسه»، الخ. وباختصار فإصلاح الغزاوي يقوم على اعتقادين: التربية الذاتية وواجب طاعة النظام السياسي والديني القائم، حتى وإن كان ظلماً. هذان الاعتقادان ما كانا ليؤثرا الا سطحياً على «العوام»، دون ان يقيمه صلحاً بينهم وبين حكم يستغلهم ويدفعهم الى صفات الحياة اليومية وبؤسها.

بالطبع، نفس الأحاديث في الوعظ يمكن اعتبارها موجهة إلى نخب الأمة. غير أن الغزالي يظهر سلفاً حنقه على هذه الأخيرة وخيته إزاء سلواكها وطرق حياتها. وهو القائل: «ان فساد الزمان لا سبب له الا كثرة أمثال أولئك الفقهاء الذين يأكلون ما يجدون ولا يميزون بين الحلال والحرام، فتلحظهم أعين الجهل ويستجرئون على المعاصي باستجرائهم اقتداء بهم واقتفاءاً لأثارهم. ولذلك قيل: ما فسدت الرعية إلا بفساد الملوك وما فسدت الملوك إلا بفساد العبيد»<sup>(22)</sup>.

من كان المتكلم؟

إن اقطاع بعض المقالات الغزالية رئيسيها قد يتبيّح، من وجهة دينامية، التعرّف على الغزالي، الإنسان الذي يتكلّم.

في أثناء فترة عزلة الغزالى الأولى والمديدة (- 488 هـ / 1095 - 1105م) كان ميله إلى التشاوئ والخيبة هو الظاهر والأقوى. فواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من الواجبات الرئيسية في الإسلام، ما عاد من الممكن تحقيقه وفرضه في شروط المجتمع الحالى. وهكذا كتب الغزالى في الأحياء: «من جرب

## 1 - رفض الفلسفة الاغريقية والقبول بفضل المنطق الأرسطي فيها.

ففي كتاباته المنطقية يذهب الغزالي إلى الاعتقاد أن الغطاء في حقل الحقيقة لا ينكشف ولا تقطع المطالبة إلا بالنظم الأرسطي للقياس، وليس بقياس التمثيل الجاري به العمل عند الفقهاء. فالحق ليس أن نقول النبيذ مسكر فإذاً هو حرام بل الحق هو أن نقول: كل النبيذ مسكر وكل مسكر حرام فكل النبيذ حرام... غير أن الغزالي (كغيره من المعلولين على المنطق الأرسطي) لم يتبع إلى أنه ليس من المنطقي في شيء احتكار «الورقة» الالهية وعرضها حتى في الطبيعتيات لعارضه مبدأ السبيبية. كما أنه ليس من اليسير انزعاع تقنيات التفكير من الميتافيزيقا التي هي امتداد طبيعي ومجانس لها.

## 2 - الشهير بعلم الكلام والفلسفة مع ممارسة أساليبها وطرق التخمين فيها.

فلما ان نقرأ في الأحياء مثلاً أحکاماً فلسفية جداً كهذه: «إذا عرفت فوائد العزلة وغوايئلها تتحققت ان الحكم عليها مطلقاً بالفضيل نفياً واثباتاً خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله وإلى الباعث على خالطته (... ) والفرق بين العالم والصوفي في ظاهر العلم يرجع إلى هذا، وهو أن الصوفي لا يتكلم إلا عن حالة فلا جرم أن مختلف أجوبتهم في المسائل، والعالم هو الذي يدرك الحق على ما هو فيه ولا ينظر إلى حال نفسه فيكشف الحق عنه...»<sup>(31)</sup>. «ونور العلم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف»<sup>(32)</sup>.

أما مرد هذا التناقض فيلي كون الغزالي يستعمل ثقافة متعددة الوجوه تارة، ويُطروح بها طوراً، باسم الدين الخالص والعلم النافع الذي شعاره قوله جملة للجنبـد: «طاحت تلك العبارات، وفنيت تلك الاشارات، وما نفعنا الا ركيعات ركعنـاها في جوف الليل».

فكيف تعابـهم، ولا يتم إلا بـزمان مساعدـ، وسلطـان متدين قـاهر؟ فـترخصـت بيـني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلـة تـعلـلاً بالعجز عن اظهـار الحق بالـحجـة، فـقدر الله تعالى ان حركـ داعـيـة سلطـان الوقت من نفسه، لا بـتحـريكـ من خـارـجـ. فـأمرـ أمرـ إـلـزـامـ بالـنهـوضـ إـلـىـ نـيـساـبـورـ، لـتـارـكـ هـذـهـ الفـرـةـ، وـبـلـغـ الـلـازـمـ حـدـاـ كـانـ يـتـهـيـ، لـوـأـصـرـتـ عـلـىـ الـخـلـافـ، إـلـىـ حدـ الـوـحـشـةـ. فـخـطـرـ ليـ إـنـ سـبـ الرـخـصـةـ قـدـ ضـعـفـ...»<sup>(26)</sup> وفي نفس المـنـقـذـ يـذـهـبـ الـأـمـامـ إـلـىـ القـوـلـ: «ولـكـنـيـ أـؤـمـنـ إـيمـانـ يـقـيـنـ وـمـشـاهـدـةـ إـنـ لـهـ حـرـكـيـ، وـلـيـ لـمـ أـعـمـلـ، لـكـنـهـ استـعـمـلـيـ»<sup>(27)</sup>.

غير أن هذا الفـعـلـ الـآـلـمـ لمـ يـكـنـ طـوـيلـ الـأـمـدـ إذـ إنـ الغـزـالـيـ عـاـوـدـتـهـ رـغـبـةـ فـيـ الـخـلـوةـ وـالـعـزلـةـ فـرـقـ المـدـيـنـةـ رـاجـعاـ إـلـىـ طـوـسـ، مـسـقطـ رـأـسـهـ، وـذـلـكـ كـلـ بـعـدـ اغـتـيـالـ فـخـرـ الـمـلـكـ (سـنـةـ 500ـهـ / 1107ـمـ) وـهـوـ وزـيرـ ضـعـيفـ الـمـكـانـةـ وـ«ـصـورـةـ بلاـ معـنىـ»، حـسـبـ تـعبـيرـ عـهـدـ الـدـينـ الـأـصـفـهـانـيـ»<sup>(28)</sup>، ماـ كانـ يـجـدـ بالـغـزـالـيـ أـنـ يـرـبـطـ مـصـيـرـهـ بـصـيـرـهـ، وـلـأـعـلـمـ بـعـهـدـهـ.

وبـعـدـ مـقـتـلـ فـخـرـ الـمـلـكـ اعتـزلـ الغـزـالـيـ الـحـيـاةـ مـرـةـ ثـانـيـةـ وـأـقـامـ فـيـ «ـخـانـقـاهـ»ـ كـانـ بـيـدـيـهـ يـنـظـفـ مـيـضـتهاـ أيـ انهـ مـرـةـ أـخـرىـ كـمـاـ نـقـرـأـ عـنـ ابنـ الجـوزـيـ «ـتـرـكـ الـتـدـرـيـسـ وـالـرـيـاسـةـ، وـلـيـسـ الـخـامـ الـغـلـيـظـ، وـلـازـمـ الـصـومـ وـكـانـ لـاـ يـأـكـلـ إـلـاـ مـنـ اـجـرـةـ النـسـخـ»<sup>(29)</sup>. وـمـاتـ رـحـمـهـ اللهـ وـهـوـ كـمـاـ يـقـولـ ابنـ تـيمـيـةـ مـشـغـلـ بـالـبـخـارـيـ وـمـسـلـمـ»<sup>(30)</sup>.

\*\*\*

وـأـخـيرـاـ مـاـ يـكـنـ تـسـطـيـرـهـ، هوـ أنـ طـيـفـ الغـزـالـيـ الـذـيـ كـانـ كـعـلـاقـ بـعـوـمـ حـولـ الـعـلـمـ الـأـنـسـانـيـ لـذـلـكـ الـعـهـدـ وـيـسـتـأـنـسـ بـالـحـيـاةـ الـجـمـاعـيـةـ تـارـةـ، وـيـخـلوـ إـلـىـ العـزلـةـ طـورـاـ، ذـلـكـ الطـيـفـ قـدـ كـانـ يـعـمـلـ فـيـ ثـنـيـاهـ تـناـقـضـاتـ مـاضـ ثـقـافـيـ إـسـلـامـيـ وـيـرـسـلـ صـورـهـاـ وـآـيـاتـهـاـ عـلـىـ الشـكـلـ التـالـيـ:

منها. أما جوهر الصراع بين الشيعية والسنوية فلم يكن دينياً عقائدياً وحسب، وإنما كان كذلك سياسياً، والسياسة هي «مصطدم تعارض الآهواء»، [حيث] لا تتفق الإرادات المتناقضة والشهوات المتباعدة المتنافرة على متابعة رأي واحد...»<sup>(35)</sup> ولم ينج صاحب فضائح الباطنية من طبيعة ذلك المصطدم وما نفرضه من ممارسة للمغالاة في حق الخصم والتشهير الشنيع المصحوب بسوء الطوية. وهذا التوجّه واضح في صك الاتهامات الموجهة للباطنية من طرف الغزالى في باب الامامة على سبيل المثال، حيث «المسالك الدالة على ابطال الامامة التي تدعى بها الباطنية وترجح الامامة التي ندعى بها اكثر من ان تدخل تحت الحصر». ومن تلك المسالك، كما يذكرها الغزالى بكثير من التعميم والتهافت: «اثباتهم لهم قديمين، على ما أطبق عليه جميع فرقهم...» وانكارهم الحشر والنشر والجنة والنار...» ثم عدم تمثيلتهم المتجلية في قلتهم العددية...»<sup>(36)</sup> وتنظر مغالاة الغزالى أيضاً في دعوته إلى تعريف الباطنية وقطع دابرهم وتطهير وجه الأرض منهم، لأنهم في عرفة، مرتدون، لا يحق فيهم الاسترقاء ولا الجريمة، وإنما الواجب قتلهم<sup>(37)</sup>.

وكل هذه العداوة التأصلة عند الغزالى بازاء الباطنية لم تمنعه من التأثر بأهم مفاهيمهم وممارساتهم، ومنها على وجه التحديد:

- مفهوم الامام: وقد لقب الغزالى نفسه بلقب الامام، بل وبالحجارة، وهذا اللقب الاخير، الذي أطلق على حسن بن الصباح مثلاً، كان معروفاً في المرميات الشيعية الروحية. وبين المفهوم الباطني للإمام والمفهوم السنوي ليست هناك فروق في الطبيعة، بل في الدرجة، طالما ان المذهبين يحملان نفس التصور للعوام ولجاجة هؤلاء إلى آئمته ومعلمين...»
- مفهوم التعليم: وهو عند الغزالى نتيجة حتمية لوعورة الاجتهد واستحالته وبالتالي شرط إمكان توافر المذهب واع ساعده...»

3 - الانضواء في مهام رسمية والتنديد بالفقهاء المستخدمين.

كان الغزالى في خصام شديد مع عصره، إلى حد دفع به إلى استحقاره وامتهانه. فهو يقول: «هكذا ضعف الدين في قرون سالفة، فكيف الظن بزمانك هذا؟ وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الانكار يستهدف لنسبته إلى الجنون، فالأخلى أن يشغله الإنسان بنفسه ويسكت»<sup>(38)</sup>، وما مدح الغزالى المنعزل السكوت إلا لأنه أدرك أن الغلبة هي لسلطان الزمان و«أن تقلد خطر الاجتهد عظيم» وأمره مستحيل على «كل أهل العصر» وهذا كله لم يمنع تكاثر «علماء السوء» الذين من رذائهم، كما يعددها صاحب الاحياء: «تعظيم الأغنياء والسلطانين والتردد إليهم والأخذ من حرامهم»<sup>(34)</sup>.

لكن الغزالى، بالرغم من تنديده بالفقهاء ومستخدمي الدولة الدينين، فإنه لم يتورع عن نصرة حكام الوقت كالخليفة العباسى المستظاهر بالله والوزيرين للدولة السلجوقية نظام الملك وبابه فخر الملك. وقد كان كجندي روحي يتلقى في مقابل نصرته تلك، مرة قبل عزلته المديدة ومرة بعدها، نوعاً من «الاقطاع المعنوی» ممثلاً في كرسى التدرис بنظامية بغداد ثم بنظامية نيسابور.

4 - الشهير بالباطنية مع تبني سلاحها واستعماله.

لعل كتاب فضائح الباطنية، الذي وضعه الغزالى بطلب من الخليفة العباسى المستظاهر بالله، من أقوى الكتب تحليلاً للمذهبية ولنشوء آياتها (العداوة والتغليط والانخداع ورفض النسبية، الخ)... ولو لم يعارض المؤلف الباطنية بالسنوية ويتحيز هذه ضد تلك وللمستظاهر بالله ضد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله لكان الكتاب من روائع المؤلفات في تاريخ الأفكار ونشوء الوثائق.

يمكن التأكيد اذن ان وثوقية الغزالى السنوية قد برزت في ضوء الوثيقية الشيعية الاسماعيلية وبيانها

تركستان وفارس وغيرهم<sup>(40)</sup>. وما عدا هذا الموقف، فالغزالى لا يقول شيئاً ضد المحسوبية في التركيب الاداري او ضد التحيزات المذهبية الدامنة القاسية في سياسات الحكم السلاجقة. بل ان الإمام يskت حتى على نظام الاقطاع الذى كان بخروقاته واستيلائه على أراضي الغير بالإلقاء<sup>(41)</sup>، وحتى على أراضي الوقف نفسها، يناقض جوهر التطور الإسلامي للعقارات والخدمات الزراعية... والأدهى والأمر أن الغزالى لا يقول شيئاً على الاطلاق ضد الفصل التاسع والعشرين من كتاب نظام الملك سياست نامه، وعنوانه: «في ترتيب مجلس الشراب وشروطه»<sup>(42)</sup>. ألم يطلع الإمام الحجة على هذا المؤلف وهو يتقن الفارسية ويكتب بها ويكون لواضعه الولاء والتقدير؟ وعلى افتراض انه عرف هذا المصنف، لماذا سكت عمـا هو فيه مناف لقواعد الاعتقاد وسنن الدين؟

الغالب على الظن ان الغزالى كان بصدده ما ذكرناه يؤثر اغماض عينيه لقراءة الطرف مع نفسه، لأنـه في المجتمع الشبه الاقطاعي الذي يعيش فيه كان في حاجة أكيدة إلى سلطة سياسة توازره وتحميـه. ونظام الـحـمـاهـةـ والـخـفـارـةـ هو كـمـاـ نـعـلـمـ، خـاصـيـةـ منـ خـاصـيـاتـ مجـتمـعـاتـ الـاقـطـاعـ.

6 - الدفاع عن مشروعية الخلافة العباسية وهي في حالة تداعـ وانهـارـ.

الباب التاسع من فضائح الباطنية معقود كله لإثبات شرعية الخلافة العباسية مجسدة في شخص «الإمام» المستظہر بالله. وان كان وجوب الإمام موضوع اتفاق بين السنوية والباطنية، فالنزاع بينهما في التعيين لا في الأصل. فشروط الإمامة عند الغزالى ليست بالنص أو التنصيص كما قالت الشيعة ولا حتى بالاختيار كما ظنت الخوارج، إذ إن الانتخاب من طرف كافة أهل «الحل والعقد» ممتنع متعذر». بل ان تلك الشروط وإنما تجتمع في الشوكـةـ والمـبـاـعـةـ ولوـ منـ طـرـفـ الوـاحـدـ (والـمـوـذـجـ علىـ ذـلـكـ مـبـاـعـةـ عمرـ لأـبيـ).

- ممارسة التأويل بتضخيم الاثر السفي: أي أن الغزالى، لكي يواجه قوة آلية انتاج الحديث والتأويل وتأويل التأويل عند الاسماعيلية، كان عليه أن يأخذ بالأحاديث الموضوعة ويستثمرها استثماراً باطنـاً نفعـاً. وهذا ما لم يفهمـه كلـ الذينـ عـابـواـ عـلـيـهـ تلكـ المـارـسـةـ وعلى رأسـهمـ ابنـ الجـوزـيـ فيـ إـعـلـامـ الإـحـيـاءـ بـأـغـلـاطـ الأـحـيـاءـ وـفـيـ تـلـبـيـسـ اـبـلـيـسـ.

## 5 - الدفاع عن الحكم السلاجقـيـ معـ احتـقارـ العـنـصـرـ التـرـكـيـ:

الظاهر ان الغزالى كان يزدرـيـ السلاجـقةـ الـاتـراكـ وـيـرىـ أـنـهـ كـالـأـكـرـادـ وـأـجـلـافـ الـعـربـ تـقـرـبـ مـنـزـلـتـهـمـ منـ رـتـبةـ الـبـاهـمـ<sup>(38)</sup> كـمـاـ لـاـ يـتـبـيـنـ أـنـ الغـزالـىـ قدـ تـوـجـهـ بـالـثـنـاءـ وـالـمـدـحـ الصـرـيـعـ إـلـىـ أـيـ سـلـطـانـ سـلـجوـقـيـ سـوـاءـ كـانـ أـوـلـهـمـ طـغـرـوـلـ بـكـ أـوـ حـفـيـدـهـ الـبـ أـرـسـلـانـ أـوـ كـانـ اـبـنـ هـذـاـ الأـخـيـرـ مـلـكـشـاـهـ.

وفي مقابلـ هـذـاـ نـرـىـ الـإـمـامـ الغـزالـىـ -ـ ربـماـ بـسـبـبـ أـصـلـهـ الـفـارـسـيـ -ـ يـعـطـفـ عـلـىـ الـوـزـرـاءـ الـفـارـسـيـنـ وـيـنـاصـرـ سـيـاسـتـهـمـ وـيـسـكـتـ عـاـفـيـهـاـ مـاـ يـنـاقـضـ شـرـائـعـ الـاسـلامـ وـأـخـلـاقـهـ. وـهـذـاـ مـاـ حـصـلـ بـالـفـعـلـ مـعـ الـخـامـيـ الـسـيـاسـيـ لـلـغـزالـىـ، نـظـامـ الـمـلـكـ، الـذـيـ اـقـرـنـ اـسـمـهـ بـاجـراءـاتـ وـأـعـمـالـ مـنـ أـهـمـهـاـ: 1 - تـوـظـيفـ التـرـكمـانـ فـيـ الـجـيـشـ وـاسـنـادـ الـادـارـةـ إـلـىـ الـفـارـسـيـنـ.

2 - رفعـ نظامـ الـاقـطـاعـ إـلـىـ مقـامـ مؤـسـسـةـ تـدـيرـهـاـ الـدـوـلـةـ وـتـنـتـفـعـ بـهـاـ...ـ<sup>(39)</sup>.

3 - تـقـرـيبـ الـعـلـمـاءـ السـنـيـنـ مـنـ الـحـكـمـ وـبـنـاءـ الـمـدـارـسـ فـيـ الـامـصارـ. (ويـقالـ انـ هـذـاـ الـوـزـيـرـ هـوـ الـذـيـ أـزـالـ لـعـنـ الـاشـعـرـيـةـ مـنـ الـنـابـرـ وـأـرـجـعـ إـلـيـهـ كـامـلـ الـاعـبـارـ...ـ).

فيـ كـتـابـاتـ الغـزالـىـ لـاـ نـجـدـ إـلـاـ اـنـقـادـاـ وـاحـدـاـ لـماـ قـامـ فيـ تـلـكـ الـاـجـرـاءـاتـ عـلـىـ سـنـ سـيـاسـةـ الـاـرـتـزـاقـ فـيـ الـنـظـيـمـ الـعـسـكـرـيـ، فـقـدـ نـظـرـ الـاـمـامـ بـنـوـعـ مـنـ الـقـلـقـ إـلـىـ التـجـنـيدـ الـمـسـتـمـرـ لـلـاـتـرـاكـ وـالـأـكـرـادـ وـرـجـالـ مـنـ

الاتجاهين عن الوظيفة الوسيطية للشخصية الأصلية وتلمع إلى التدرج الذي يلزم مراعاته لتبين أن «كل إنسان هو من بعض الوجوه»<sup>(1)</sup> كجميع الناس، 2) بعضهم، 3) كلا أحد<sup>(45)</sup>.

إن ركزنا على الشخصية الأصلية كمحور للتفاعلات الفردية والمجتمعية وكترجمة عن التشكيلات أو الانتهاءات «البعضية» أو الطبقة، قلنا في شأن الغزالي أن فكره تعبير ناضج متطور عن ظاهرة الأيديولوجيا السلو gioية الصاعدة المعززة بالبيروقراطية الفارسية. فقد كان لابد للسلامجة أن يعلوا على رجل قطب كالغزالي وهم الذين اعتنقوا دين الإسلام اعتنقاً شديداً واختاروا المذهب السنوي خطأً أيديولوجيًّا حتى يضفوا صفة المشروعية على حكمهم الذي فرضوه كرد فعل «طبيعي» على الإمارة البوئية الشيعية الإمامية القائمة قبلهم وحتى يواجهوا فاطمي مصر وسوريا بسلاح حاد تميز. والحكم السلو gioي، بتوظيفه السياسي للدين لم يكن استثناء بل تأكيداً لإحدى المكونات التي تعرف الانقطاع الشرقي أو المجتمعات التي يسميها المؤرخون اليوم بالهدروليّة. وكارل ويتغول بالمثال يكتب عن تلك المكونة: «خلاف المجتمع الأوروبي الاقطاعي حيث لا تربط جل القادة العسكريين (الاعيان الاقطاعيين) بملوكهم الا علاقة رخوة وعقود، وحيث الدين المهيمن مستقل عن الحكم الرزمي، بخلاف ذلك كان جيش المجتمع الهدرولي جزءاً لا يتجزأ من البيروقراطية الفلاحية المنظمة وكان الدين المسيطر شديد الالتصاق بالدولة. وهذا التجمیع الهائل للوظائف الحيوية هو الذي أعطى للحكم الهدرولي سلطته الاستبدادية (المطلقة) المحققة<sup>(46)</sup>.

بالطبع، لم يكن الغزالي بمثابة الاداة المسخرة الطيعة بين أيدي حكام العصر بل كان، بفضل فكره القلق والميال إلى النسق والقطعيات، يستقل عن

بكر...). أما شرائط صلاح الامام فهي: البلوغ والعقل والخبرة والذكورية ونسب قريش وسلامة حاسة السمع والبصر. وصفات الامام المكتسبة: النجدة والكافحة والعلم والورع (والغزال يتساهل مع الخليفة في صفة العلم، قائلاً: «وليس ربة الاجتهد مما لابد منه في الامامة ضرورة، بل الورع الداعي الى مراجعة أهل العلم فيه كاف»)<sup>(43)</sup>.

إن دفاع الغزالى، كما هو وارد في هذا الباب التاسع، دفاع يائس مهزوز، بما أنه يرى شروط الامامة وشرائطها وصفاتها مجتمعة في الخليفة المستظہر الورع - حسب تصويره - والزاهد في عبارة الدنيا والمضرب عنها، والذي كان، كغيره من الخلفاء العباسين المتأخرین صورة بدون معنى وخليفة بلا سلطة. والغزالى لا يفعل هذا وحسب، وإنما يتولى مهمة تبییس الناس من كل محاولة لاستبدال الامام حتى وإن أجمعوا على ذلك، وهو القائل: «ان تقدیر اقتدار الخلق على الاستبدال بالامام والتصرف فيه بالخلع والانتقال - محال في زماننا، اذ لو أجمع أهل الدهر وتآلبو على ان يصرفوا الوجه والقلوب عن الحضرة المقدسة المستظہرية لم يجدوا اليها سبيلاً، فيتعین على كافة علماء العصر الفتوى بصحة هذه الامامة وانعقادها بالشرع<sup>(44)</sup>.

وهكذا كان الغزالى يبني عن الفتنة، لأنها أشد من القتل، هذا مع العلم ان الفتنة أو التمردات - كما يشهد مؤرخو الأنظمة الاقطاعية وشبه الاقطاعية - هي من العواقب الالزامية لتصدع السلطة السياسية وتفسخها...

\*\*\*

وختاماً، لنا ان نؤكد ان جمل تلك النقاصات التي فحصناها يمكن تفسيرها في إطار الشبكة التي وضعها ميكيل دوفرين بهذه العبارات:  
الشخصية الفردية ← الشخصية  
الأصلية ← المجتمع وتعبر السهام الموجهة في كلا

إلى طبائع العقل الإسلامي الوسيط، التي لا زال القسط غير البسيط من صورها وأياتها في حالة ذيوع واسترسال.

الحاجة، وبعصم نفسه بالخلوة والتصرف عن الدنيا والطلبات السياسية المباشرة الملحقة. ولذلك اتسمت مسيرة الفكرية بتناقضات وازدواجيات يحيط معظمها

## الحواشي

- (1) فضائح الباطنية، تحقيق د، بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت 1964(?)، ص 171.
- (2) انظر تواريخ آل سلجوقي وهو مشتمل على كتاب زبدة النصرة ونخبة العصرة لعماد الدين الأصفهاني، اختصار البنداري، نشره هوتسيان طبعة ليدن 1890، المجلد الثاني، ص 80. وللقاء نظرة سريعة على دور الجيش إبان عهد انتكاسة العالم الإسلامي، يمكن أن نراجع بالفرنسية كلوド كاهين «العوامل الاقتصادية والاجتماعية في ركود الإسلام الثقافي»، انظر الترجمة الكلasicية والانتكاسة في تاريخ الإسلام، باريس 1957. أما عن نظام توزيع الأرضي وتأسيس الاقطاع فيمكن الابتداء بالاطلاع على: (1) عصمان توران: «نظام العقار الفلاحي تحت سلاجقة روم»، في مجلة الدراسات الإسلامية (1، 1947، بالفرنسية؛ 2) بولياك، الفيدوالية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، 1000 - 1950 (بالإنجليزية)، لندن 1939، الخ. .
- (3) ماكس فيبر - الاقتصاد والمجتمع (بالفرنسية)، طبعة بلون، باريس 1971، الجزء الأول، ص 268.
- (4) انظر بيرنار ولويس، العرب في التاريخ، الترجمة الفرنسية، بروكسل / سويسرا، 1958، ص 157.
- (5) المستصنfi من علم الأصول، القاهرة، 1356هـ/ 1937م، ج 2، ص 101 .
- (6) المستصنfi، ج 1، ص 157.
- (7) نفس المصدر، ج 1، ص 157.
- (8) لم يفت أهل الحديث - من بمحى قطان إلى ابن الجوزية الذهبي - الاحتجاج ضد ذلك الاستعمال للأحاديث غير الصحيحة موضوعياً. وقد ذهبوا إلى حد إلقاء اللوم على إمام كالغزالى الذي تبنى في آياته أحاديث ذات إسناد موهوم.
- (9) يذهب الغزالى إلى حد اعتبار كل أصناف الاستصلاح التي لم يعبر عنها القرآن أو السنة من «الأصول الموهومة». راجع المستصنfi، ج 1، ص 139 - 144، حيث ينتقد استصلاح المالكين.
- (10) تلخص تلك النقط المشروع الأساسي لاحياء الغزالى، وما يلزم إضافته هو أن الاحياء، هذه الموسوعة الروحية الضخمة، يجمع بين دفنيه مسائل كثيرة متنوعة: المعرفة وعلم الكلام، العبادات والفقه، أعمال البر وأصول الشريعة، الرياضة الصوفية والروحانيات، التجربة الفكرية وعلم المعاد.
- (11) عبد الجليل، «حول صدق الغزالى»، (بالفرنسية) في ميلانج لوي ماستيون، دمشق، 1956، ص 37 - 72.
- (12) نشير بالخصوص إلى كتاب فريد جير بالفرنسية، مفهوم اليقين عند الغزالى، دار نشر جان فران، باريس سنة 1958، وسياسة الغزالى هنرى لاووست، دار نشر كوتير، باريس 1970.
- (13) عماد الدين الأصفهاني، زبدة النصرة، في المرجع المذكور، ص 67، نعلم أن المعارضة الرئيسية للنظام السلجوقي كانت ممثلة في الأسماعيين. غير أن المعارضين الجدد هم أشد الأسماعيين تطرفاً وتنطيناً وخطورة. وقد سموا بالخشاشين، بسبب تناول «القدائين» المشيش قبل أقدمهم على أعمال الإرهاب والاغتيالات السياسية، وعرفتهم الصليبيون تحت اسم «قتلة» Assaseins وهو تحريف لاسم الأول. أما رئيسهم حسن بن الصباح «شيخ الجبل» الذي عاش حياة تصلح كمادة خصبة لأعمال رواية ومسرحية، فقد استولى على قلعة الموت الحصينة في ش韶 فارس سنة 1090م، وأصبحت حيه المركزي الذي فلسف فيه مذهبة في الغنوصية الشيعية وفي الاستيلاء على الحكم، ووجه منه ضرباته الارهابية الناجحة ضد الملوك والأمراء وضد رجال الدولة وقادها. وتتجذر الاشارة إلى أن من ضمن ضحاياه اللامعين وزير الدولة السلجوقي نظام الملك... ونعلم كذلك أن الرعب

- الذى فرضه على الساحة السياسية لذلك العهد لم ينته إلا إبان هجمات المغول في القرن الثالث عشر ميلادي / السابع الهجري .
- (14) راجع هنري لاووست ، سياسة الغزالي ، المرجع المذكور ، ص 137.
- (15) يعطي الفيلسوف الصوفى الأندلسي ابن سبعين (المتوفى 669 هـ/1270 م) صورة نقدية لاذعة ، ولكنها ليست خالية تماماً من الصحة . عن الغزالى : «اما الغزالى فلسان دون تبيان ، وصوت دون كلام ، ومتخلط بجمع الأضداد ، وحيرة تقطع الأكباد ، مرة صوفى وأخرى فيلسوف وثالثة أشعري ورابعة فقهى وخامسة محير . وإدراكه في العلوم القديمه أضعف من خيط العنكبوت ، وفي التصور كذلك لأنه دخل الطريق بالاضطرار الذى دعاه لذلك من عدم الادراك . . . » ، انظر بد العارف دار الأندلس ، بيروت 1978 ، ص 441 .
- (16) المتقد من الضلال ، بيروت 1950 ، ص 48 .
- (17) فضائح الباطنية ، نفس المرجع ، ص 88 .
- (18) إحياء علوم الدين ، دار المعرفة ، بيروت ، ج 1 ، ص 43 .
- (19) ولا أدل على ذلك من الأعراض الجسمية التي يصفها الغزالى في المتقد . . . المرجع المذكور ، ص 37 .
- (20) المتقد . . . ، ص 47 .
- (21) المتقد . . . ، ص 48 .
- (22) احياء علوم الدين ، ج 2 ، ص 238 .
- (23) نفس المصدر ، ص 229 .
- (24) نفس المصدر ، ص 232 .
- (25) نفس المصدر ، ص 234 .
- (26) المتقد . . . ، المرجع المذكور ، ص 48 .
- (27) نفس المصدر ، ص 50 .
- (28) ابن الأصفهانى ، زبدة النصرة في نفس المرجع ، ص 76 .
- (29) ابن الجوزي ، المتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدر آباد 1359هـ ، ج 9 ، ص 169 .
- (30) ابن تيمية ، الرد على المنطقين ، دار المعرفة ، بيروت (بدون تاريخ) ص 198 .
- (31) إحياء . . . ج 1 ، ص 242 .
- (32) إحياء . . . ج 1 ، ص 243 .
- (33) إحياء . . . ج 1 ، ص 79 .
- (34) إحياء . . . ج 1 ، ص 47 .
- (35) فضائح الباطنية ، نفس المرجع ، ص 177 .
- (36) نفس المرجع ، ص 172 وما يليها .
- (37) نفس المرجع ، الباب الثامن : «في الكشف عن فتوى الشرع في حقهم من التكفير وسفك الدم» .
- (38) إحياء . . . ج 1 ، ص 83 .
- (39) انظر نظام الملك ، سياست نامة ، ترجمه إلى العربية ، ط ، دار الثقافة ، الفصل الخامس والفصل السادس والثلاثون .
- (40) انظر الأحياء ، المطبعة العثمانية ، القاهرة 1952/1953 ، ج 2 ، ص 20 .
- (41) عملية الاجلاء التي يظهر أنها بدأت مع البوهين في دفع صغار الملوك إلى وضع أراضيهم «في حماية الخليفة أو أحد الأمراء أو الموظفين الكبار بتسجيل تلك الأرضي باسمائهم في الديوان ، وذلك مقابل دفع جزء من الحاصل إلى الحامي» . (أنظر عبد العزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، دار الشرق ، بيروت 1974 ، ص 46 - 24 .
- (42) مما هو وارد في الفصل المذكور من نفس المرجع ص 157 «السلطان عائل العالم ، وأهل العالم جميعاً عياله وعيبيده ، ويفضي الواجب بلا يحمل إليه الطعام والشراب من دور من هم عياله المتقلبون في نعمته . أما إذا حلوا معهم شرائبم لأن الساقى الخاص يدير

عليهم شرابةً غير طيب وجب أن يعاقب الساقي ويؤخذ بـأن لديه من الخمر طيبها وخبيثها، فلماذا يدير عليهم خبيثها؟ وذلك لـكي يزول ذلك العذر».

(43) فضائح الباطنية، ص 191.

(44) نفس المراجع، ص 193.

(45) انظر م. دوفرين، الشخصية الأصلية، باريس 1966، ص 203، ومحمد أركون «الوحى، الحقيقة والتاريخ في مؤلفات الغزالى»، في بحوث حول الفكر الإسلامي، ط، ميزونوف، باريس 1973، ص 233.

(46) انظر الاستبدادية الشرقية (الترجمة الفرنسية) دار مينوي، باريس 1974، ص 160.

## نداء إلى الباحثين والكتاب

يسر مجلة «الفكر العربي» أن تعلن إلى الباحثين والكتاب عن محاور أعدادها المقبلة التي ستتناول الموضوعات التالية:

- الفكر التاريخي العربي والمدارس التاريخية.
- اللغة العربية: إشكالات المعاصرة.
- الثورة والتقدم والحداثة: بمناسبة مرور 200 سنة على الثورة الفرنسية.
- الجماليات العربية.
- علم النفس والانسان العربي.
- حقوق الانسان العربي.
- السينما والمسرح في المجتمع العربي.

إضافة إلى المحاور فإن المجلة ستفرد بعض الملفات لموضوعات محددة مثل:

- مئوية ميخائيل نعيمة.
- الترجمة والتعريب واشكالات المعاصرة.